أحمد الأحمدين

الوقوف على الأميّة عند عرب الجاهلية

Bibliotheca Alexandrina
0112557

مركز الحضارة العربية

الوقوف على الأمية
عند عرب الجاهلية

أحمد الأحمدين

الطبعة العربية الأولى : ١٩٩٩

رقم الإيداع : ٩٩/١٦٢٧

الترقيم الدولي : I.S.B.N. 977-291-126-4

- مركز الحضارة العربية ، مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية ، إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشرها وتوزيعها .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

رئيس المركز
على عبد الحميد

مدير المركز
محمود عبد الحميد

الجمع والصف الإلكترونى
مركز الحضارة العربية
٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات
تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

الوقوف على الأمية
عند عرب الجاهلية

أحمد الأحمدين

مركز
الحضارة
العربية

مقدمة

دعانى إلى كتابة هذا الموضوع كثرة ما يتردد عن تعميم عرب ما قبل الإسلام بأمية القراءة والكتابة ، وجعْل القارئ الكاتب بينهم أمراً يصعب على المتتبع إيجاده ، ودعاة هذا يسوغون نهجهم مُعَوِّلاً على حديث للرسول - عليه الصلاة والسلام - : (نحن أمة أمِّية لا نكتب ولا نحسب) . دون شرح له طبعاً ، أو حتى المناسبة التى قيل فيها لأنهم لو ذكروا هذا تبين للقارئ أو السامع غير ما يريدون ؛ إذ إن الرسول لم يقصد جهل أمته بالقراءة والكتابة وضروب الحساب ، اللهم إلا أنهم يسقطون ذلك الضرب الذى بسببه قيل الحديث ، كذلك تراهم يعولون ويكثرون من الاستشهاد بالآية الثانية من سورة الجمعة : (هو الذى بعث فى الأميين رسولاً) . وهم فى هذا وذاك يعولون على ظاهر اللفظ ومنطوقه ليس غير ، وهذا اللفظ ورد فى القرآن فى أكثر من آية لكنه ما قصد بأى موضع منها أنه يعنى أمية القراءة والكتابة ؛ بل العكس فإن القرآن خاطب العرب لا سيّما الحجازيين وأهل الكتاب فى غير الحجازيين بأنهم قارئون كاتبون عالمون [1] بالكتب والرسل والأنبياء ، والأمم السابقة ، والمعاصرة لهم .

وأيضاً يدل على هذا ما ورد فى الأدب الجاهلى وما حواه من ذكر القراءة والكتابة وأدواتها ، بل إنه عرفنا أنه كان للمكتوب عندهم مسميات عديدة اصطلحت حسب أغراضه .

ووجدتُنى مشدوداً إلى تناول الموضوع بالبحث والتحقيق لأنه فى يقينى ويقين الكثيرين غيرى أن أسلافنا لم يكونوا على هذا النحو الذى يصوره أولئك ، وعنيتُه فعلاً ومكثت فيه حيناً من الدهر بين البحث والتحقيق والتأليف حتى أتيت بما بين أيديكم وبما أرجو أن يجد فيه القارئ نفعاً ويكون زُبالة فى طريقنا الذى يُعنى أولئك أن يعتموه علينا .

أحمد الأحمدين
ديسمبر ١٩٩٧م

---

(١) سأبين ما المقصود بأمية العرب التى وردت فى القرآن ، وسبب قول الحديث الذى ورد عن الرسول والمناسبة التى قيل فيها ، وذلك فى حينه .

- ١ -

المملكتان العظيمتان

رأيت قبل أن أبدأ موضوعى عن الأثر التعليمى فى العرب لمملكتىْ (الحيرة) و(غسان) أنه ينبغى علىَّ البدء بمملكتين أبعد عهداً وأعظم أثراً منهما حتى أكون أتيت الأمر من فصه كما يقول (طرفة بن العبد) أو غيره ، أى من أصله .

المملكة الأولى

هى جزء من شبه الجزيرة العربية لم يتغير اسمها القديم إنما الذى تغير هو نظامها من ملكى إلى جمهورى ، وكانت فى الحين الذى نعنيه ذات يسار وخصب وقوة - ونرجو أن تعود - وكانت كتاباتها منتشرة بأماكن كثيرة من المعمورة ، فى آسيا وإفريقيا ، بل وفى بعض الجزر الأوروبية . وجاءت صورتها فى القرآن على هذا النحو (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية .. جنتان عن يمين وشمال) .. (قالوا نحن أولوا قوة وأولو بأس شديد) . أحسب أنه تأكد عندك أن أعنى (اليمن السعيد) ، واليمن رغم حضارته تلك ورغم انتشار كتابته تحول العرب عن هذه الكتابة إلى أخرى، بل إن اليمن نفسه تحول إلى الكتابة الأخرى لتكون كتابة العرب جميعاً قبل الإسلام بقرون . وعُرفت حضارة اليمن منذ أواخر الألف الثانى قبل الميلاد حتى إن أظله القرن السابع ق . م كانت هذه الحضارة بلغتْ أوجها ، وقد استطاع علماء الساميات فى منتصف القرن الماضى أن يقفوا على هذه الحضارة من خلال اجتهادهم فى ترجمة وفك رموز نقوشهم الكثيرة والتى بلغت آلافاً فى مواضع مختلفة ، وعرفوا وعرفنا من خلالهم أنه كان لليمن خمس ممالك متعاقبة (معين) (سبأ) (قتبان) (الأوسانية) (حضرموت) ، وعرفنا حكوماته وقوانينه ، وتشييدهم للسدود والهياكل والقصور ، وإلمامهم بعلوم وصناعات كثيرة علاوة على تفوقهم فى هندسة الرى والزراعة ، وكانوا أرباب تجارة واسعة تجتاز البر والبحر .

ففى البر كانت قوافلهم تخرج من ديارهم حتى الديار الشامية والمصرية حاملة ما تنتجه بلادهم وما يجلبوه من الهند وإفريقيا إلى هذه البلاد ، ومن ثم كانت الجسر بين الشرق والغرب ، وكان ذلك يحتم عليهم إقامة الحاميات القوية فى جميع ممرات قوافلهم لحمايتها ، فأقاموا مراكزَ لها فى

النقاط الهامة مثل منطقة شمالى الحجاز ودون مدينة دمشق التى كان ببعض نواحيها كهوف يسع الواحد منها أربعة آلاف من اللصوص [1] مثل منطقة (اللجاه) المعروفة (بالوعرة) . وقد وُجدت نقوشهم فى هذه المناطق (الحجر) و(دادان) شمالى الحجاز ، ودون دمشق .. وقيل إن هذه الحاميات ظلت بهذه المناطق وغلب عليها الطابع الشمالى بعد أن نقلوا حضارتهم إلى إخوانهم فى الشمال إبان حكم مملكتى (معين) و(سبأ) أى منذ عشرة قرون قبل الميلاد ، أو دون ذلك بقرنين . ووجدت كتابتهم بمصر وكان لهم جالية كبيرة وذات شأن رفيع بها، وكانت على صلة بالكهنة والحكومات ..

أما سبيل البحر فكان لهم أسطول كبير يجوب البحار ، وقد وجدت كتابتهم فى الجزر اليونانية (جزيرة ديلوس)[2] ، وكان لهم جالية كبيرة بها تستقبل ما تحمله السفن لتنقله داخل البلاد ، كذلك وجدت نقوشهم فى إفريقيا بمملكة (أكسيوم) و(زنجبار) ، وكانت لهم جاليات بإفريقيا لغرض التجارة أيضاً .. ولا بد أن يكون هذا الأسطول بلغ البلاد الهندية ما داموا كانوا على علاقة تجارية معها ، بيد أنى لم أقرأ هذا فيما قرأت .. أما تداعى هذه المملكة وبوادر انهيارها فبدأت منذ حوالى عام ٢٧٠ ق.م عندما أنشأ بطليموس الثانى أسطولاً بحرياً فى البحر الأحمر يحمل إلى مصر والبلاد الشامية تجارة الهند وشرق إفريقيا ؛ فاضطربت حركة التجارة اليمنية شيئاً فشيئاً حتى توقفت وهنالك أخذت أحوال اليمن تسوء ، وكان هناك عامل أقوى وأبعد أثراً من هذا وهو منازعة ملوك ريدان للسبئيين ، ثم انتزاع الملك من أيديهم فى عام ٢١٥ ق.م ، وهؤلاء الريدانيون هم الحميريون أصحاب آخر مملكة لليمن القديم . وتمضى العقود لتظهر أن الرومان ما غاب عن خاطرهم مفاتيح التجارة التى بأيدى اليمنيين وأنهم يعدون العدة لتجريدهم منها ففى عام ٢٢ ق.م جهز إليوس جالوس والى مصر الرومانى حملة كبيرة لغزو اليمن ، لكن هذه الحملة فشلت وما كان لهم أن يعودوا بهذا الفشل الذريع ؛ فجمعوا قواتهم وسفنهم واتجهوا إلى ميناء عدن واحتلوها وجعلوا بها قاعدة لتموين سفنهم فقضوا على التجارة اليمنية تماماً ، وازدادت أحوال اليمنيين سوءاً وأُهملت شئون البلاد العمرانية وجعل الخراب يدب فى مرافقها الحيوية ، وفى القرن الرابع الميلادى يظهر لهم عدو آخر لا يفصله عنهم إلاّ مضيق فى البحر الأحمر وهم الأحباش حلفاء الرومان وقتئذ الذين خرجوا إليهم فى حملة عظيمة واستطاعوا أن يحتلوا البلاد ويبقوا بها عشرين عاماً ، ثم يجلون عنها ليعود اليمن مستقلاً لكنه ضعيف ، ويقال إن ذلك شجع القبائل الشمالية بالإغارة عليه أو على الأجزاء التى دونها وفرض لغتها ، ثم إن الخراب الذى حل به جعل كثيراً من

---

(١) فليب حتى فى مؤلفه (تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين) .

(٢) الأستاذ جواد على فى مؤلفه (تاريخ العرب قبل الإسلام) .

قبائله تهاجر إلى الشمال .. وفى عام ٥٢٠م عـاد الأحباش لغزوه بإيعاز من الرومان بعدما نكل ذو نواس بأهل إقليم لجران المسيحى ، فاتجهت إليـه الحملة تحت قيادة أبرهة واحتلوه وغدا أبرهة وبنوه حكامه مدة خمسـين عاماً ثار فيها اليمنيون ثورات عديدة لكن دون جـدوى ، ثم استعانوا بالفرس عن وساطة مملكة الحيرة فأعانوهم واستطاعـوا أن يطردوا الأحباش ، لكن الفرس بقوا بالبلاد حتى مجيء الإسلام إليها فى عام ٦٢٨م ودخل بازان عامل الفرس عليه فى الإسلام .

تلكم إشـارة سريعة إلـى ما كان علـيه اليمن قـديماً ، لكنـها ما كـانت تمر بنا دون أن تسـترعى اهتمامنا بأنهـا حضارة عربية خالصـة ، وأنها لم تك ببعيدة عن الإخوان فى الشـمال وأن الاتصال الحضارى قديم بينهم أرجعـه بعض علماء الساميات إلى ألف وخمسمـائة عام قبل الميلاد ، وذكره بعضهم دون ذلك ، وهذه الحضارة تناقلتها كل الدول العـربية التى حلت بشمالى الحجاز والحجاز نفسه من ثموديين وصفـويين ولحيانيين إلى الخزاعيين عبر العـمالقة والجراهمة ، ثم ثبت وهو أهم ما يعنينا هنا أن جميع من ذكرتهم من سكان المنطقتين اسـتفادوا من خط إخوانهم الجنوبيين وكتبوا به فى هذه الحقب القديمة وظلوا كذلك حتى بعد قيام المملكة النبطية وحتى بعد قيام الاتحاد النبطى الذى كان شمالى الحجاز عضو فيه .

ومن ثمَّ نرى الظروف حولتـهم من حضارة إلى حـضارة وكلتا الحضـارتين عربيتان وكلتـاهما أفادتهم ، وكانت الحـضارة الثانية أعظم فائدة للعـرب جميعاً لكونها صـاحبة الخط الذى نكتب به كما ذكرت .

المملكة الثانية

بدا لنا من خـلال الحديث عن الكتـابة أنها مملكة الأنبـاط ، والحديث عن الأنبـاط لا يفوت أى متناول لموضوع الكتابة والخط العربى سواء رضـى أم لم يرضَ لا سيّما فى عصرنا هذا الذى فُكت فيه الرموز والنقوش وترجمت الكتابات القديمة ..

يقال إن أول ظهور للأنبـاط كان فى القرن السادس قبل الميـلاد وأول تاريخ ثابت عنهم هو عام ٣١٢ ق.م وكـانت مملكتـهم تقع جنوب الأردن وعـاصـمتـهـا (بتـراء) وبتـراءلفظ يونانى لكلمـة (صخرة) ، إذ كانت هذه العاصـمة محفورة فى قلب صخر رملى يظهـر جميع ألوان (قوس قُزح) فكانت تشكل مزيجاً فريداً من الفن والطبيعة ، وكان يطلق عليها المدينة الوردية ، والمدينة الحمراء ، والحمراء الـوردية . كلها كانت تطلق على العـاصمة الجميـلة . وكانت هذه المملكة عربية اللـهجة

لكون ملوكها وسكانها عرباً شماليين ، وكانت وثنية الدين كأغلب سكان الأرض حينئذ ، أما كتابتها فكانت آرامية إلى حين ، وكانت يونانية رومانية الهندسة والفن والثقافة عموماً ، وتنتشر فى شوارعها الواسعة الأعمدة الرخامية وفى أحيائها المسارح والملاعب .. وكان عام ١٦٩ ق.م فاتحة سلسلة لملوكها الذين عرفت أخبارهم وذاعت سيرتهم وهى الحقبة التى عنوا فيها أن يكون لهم خطهم وأن يستقلوا عن الخط الآرامى ، وجدُّوا فى الأمر حتى استطاعوا بعد حقب أن يحققوا الحلم ويولد الخط النبطى العربى من الرحم الآرامى ، وفى هذه الحقبة العظيمة ؛ نشأ (الاتحاد النبطى) الذى ضم جنوب فلسطين وجنوب شرق سوريا وشمالى الحجاز مع المملكة النبطية . وفى هذه الحقبة أيضاً أخذت تظهر صورة الملك والملكة على النقود النبطية ، كذلك أخذت تظهر التماثيل النصفية لهما ، وذلك منذ عهد الملك عبيدة الثالث الذى دام حكمه تسعة عشر عاماً سنة ٢٨ ق.م حتى سنة ٩ ق.م وظلت صور الملوك وزوجاتهم على النقود وظل تخليدهم بالنحت إلى نهاية المملكة .

وفى عهد الملك الحارث الرابع الذى دام حكمه تسعة وأربعين عاماً من سنة ٩ ق.م : حتى سنة ٤٠ م ؛ بلغت المملكة أوج عزها وقوتها ، وتابع الحارث نشر الحضارة الرومانية اليونانية فى المملكة فزادت حاضرتها فناً وجمالاً مع فن وجمال الطبيعة ، إلا أن الكتابة الآرامية هى التى كانت لا تزال تظهر على المسارح والقصور والدور ، والملاعب والشوارع وعلى النصب التذكارى وعلى النقود وفى دواوينهم . وهذا أمر طبيعى فإن الانتقال من لغة إلى أخرى ومن كتابة إلى أخرى يحتاج لزمن متسع لدى الدول .

ويبدو أن عهد الحارث هذا شهد أحداثاً هامة وكبيرة ، منها بوادر التبشير بالمسيحية ، إذ ذُكر أن الوالى الذى حاول القبض على (بولس الرسول) بدمشق كان أحد ولاته ، ثم كان هناك حدث كبير فى تاريخ البشرية أو فى تاريخ المسيحية وشاءت الظروف أن يحتك به الحارث ، وهذا الحادث هو مقتل (يوحنا المعمدان) فقد كان هيردوس الحاكم اليهودى ابن هيردوس الكبير زوجاً لابنة الحارث ثم طلقها وتزوج سالومى [1] الراقصة التى تسببت فى مقتل (يوحنا) ، وهنالك شن الحارث حرباً مظفرة على هيردوس ، لكنها كانت باسم كرامته وكرامة ابنته ، وهكذا شاءت الأقدار أن يلقى هيردوس عقابه على يد هذا الملك العربى .

وقد أكد القدماء مثل (يوسيفوس) و(ديودورس) وغيرهما أن المملكة النبطية عربية حكومة

---

(١) فليب حتى - مصدر سابق .

وشعباً وهم يتحدثون العربية الشمالية ، وجاء علماء الساميات ليجعلوا هذا يقيناً لا شك فيه من خلال قراءاتهم لكتابات الأنباط وقد لمسوا فى هذه الكتابات مراحل تطور الخط النبطى من الكتابة الآرامية المحرفة إلى محاولات الاستقلال عنها إلى الانفصال بالخط النبطى ومراحل تطوره ..

وفى عام ١٠٦م يقضى الرومان على الاتحاد النبطى وعلى (بتراء) ويضم هذه الأجزاء إلى ولاياتهم وتنتهى هذه المملكة العربية، لكن لم ينته أثرها ولن ينتهى ما دامت الكتابة العربية موجودة.

رأينا التاريخ الثابت لمملكة النبط هو بداية العقد الثانى من القرن الثالث قبل الميلاد وهو تاريخ جاء بعد الاضطراب الذى أخذ يلحق باليمن العظيم كما بدا لنا ، وتمضى العقود فنرى اليمن يصاب بمزيد من النكبات تضطره لأن يهمل شئونه الاقتصادية وغيرها ، وكان عامل التجارة الداخلية والخارجية عاملاً أساسياً ومهماً فى اقتصاده ، وعلى الجانب الآخر كانت مملكة النبط تقوى وتزدهر حتى بدت تنهض لهذا الأمر وغيره وتلقفت من الإخوان هذا العامل المهم وهو نقل التجارة من الديار اليمنية إلى الديار الشامية والمصرية ، فزادهم هذا قوة على قوتهم وازدهاراً على ازدهارهم وظل بأيدهم الأمر حتى قوضتْ المملكة .

ورأيناهم لم يهتموا بالعامل الاقتصادى وحسب ؛ إنما اهتموا أيضاً بالتعليم والتثقيف إلا أن العمل بهما كان يونانياً .

ونحسبهم عقدوا النية على أن يكون عربياً ؛ ففكروا وتدبروا فرأوا أنهم لا يستطعون تحقيقه إلاّ إذا كان لهم خط مستقل بهم يكتبون به لغتهم ومن ثَمّ تعليمهم وكل أمورهم ، وأعطوا للأمر عظيم اهتمام ؛ حتى استطاعوا أن يشتقوا هذا الخط من الأصل الآرامى كما مرّ بنا ، ثم كانت بداية الانفصال عنه فى حوالى منتصف القرن السابق للميلاد .

وتبدو لنا فترة ما بين انفصال الخط وسقوط المملكة حوالى مائة وخمسين سنة نحسبها فترةً كافيةً لأن يُطور هذا الخط ويُنمى ، ثم تبدو لنا أنها فترة كافية لأن ينتشر أو يُعرف بين أعضاء الاتحاد ، أو على الأقل بين الإخوان فى شمالى الحجاز . ومن هنا يكون سكان هذه المنطقة عرفوا هذا الخط فى أوائل القرن الميلادى ، أى بعد خمسين سنة من انفصاله عن الآرامى . بل إن اليقين أثبت أن اليمنيين عرفوه فى هذه الحقبة من خلال النقوش التى عثر عليها البحث العلمى الحديث فى ديارهم ، ونحسبها من أثر القوافل التجارية .

وإذا كان اليمنيون عرفوه فى هذه الحقبة فأولى أن يعرفه من هم دونهم ومن هم عايشوهم وكانوا أعضاء فى اتحادهم وهم شماليون مثلهم كالثموديين واللحيانيين ، والمعروف أن الثموديين

نزلوا الطائف ، واللحيانيين نزلوا دون قبيلة هذيل ، ثم اندمجوا معهم دون أن يفقدوا هويتهم ، وظلوا يعرفون ببنى لحيان حتى مجيء الإسلام ، وكلاهما كان قريب المنزل والمنزلة من مكة ، ثم لما تقوضت هذه الدولة الواسعة وزال سلطان بتراء تفرق الأنباط أنفسهم بين إخوانهم بالجزيرة العربية، وقد تكون فُرقتهم سابقة لجوء إخوانهم من الثموديين واللحيانيين داخل منطقة الحجاز ، فإنه لم يُحدد على وجه الدقة الزمان الذى فروا فيه عن وطنهما (الحجر)[1] و(دادان) . بل إن من الكتاب المعاصرين من رجحوا [2] أن يكون أصل القرشيين يرجع إلى النبط ، كذلك لجأ الأنباط إلى العراق ونزلوا فى جهات البطائح من أسفل الفرات ، ومنهم من ظلوا بالأردن وطنهم .

ومن هنا نرى عاملاً لا يُنكر فى انتشار هذا الخط فى الجهات العربية ودون الفرات ، وبقائه كذلك بمنطقة الشام ، لكن نحسب أن الخط المسند الجنوبى هو الذى كان لا يزال سائداً فى المنطقة العربية حتى نهاية القرن الثانى الميلادى وقد وجدت منه نقوش للثموديين بالطائف ، ونحن نعلم أن الثموديين واللحيانيين والصفويين سكان شمالى الحجاز ، والعرب جميعاً كانوا يستعملون الخط الجنوبى [3] منذ قرون بعيدة قبل الميلاد على نحو ما ذكرت ، إنما يبدو أيضاً أنهم جميعاً عقدوا النية على أن يتخذوا الخط النبطى بديلاً عنه منذ شاع فيهم لما رأوه أسهل وألين من المسند الصعب ، وما وجدوا فى هذا غضاضة إذ إنه قادم عن إخوة لهم كما كان المسند صادر عن إخوة لهم . أما سبب بقاء المسند حتى هذا الحين فهو من دواعى مراحل الانتقال كما كان الشأن عند الأنباط حين أرادوا أن يتحولوا عن الآرامى إلى النبطى وما يجعل هذا يقيناً تلك النقوش الأربعة التى عثر عليها علماء الساميات والتى تبدى مراحل التطور ، فإن أقدمها وهو نقش قرية (أم الجمال، والمؤرخ بعام ٢٧٠م قيل إنه نبطى لكنه يمتاز بترابط الحروف . وأول شكل فى بناء خطنا هو ترابط الحروف .. أما النقش الثانى الذى جاء بعده بثمان وخمسين سنة ٣٢٨م وهو نقش (النمارة) بدا أنه عربى به شىء من الأثر النبطى .. أما النقش الثالث والرابع والمؤرخ أولهما بعام ٥١٢م وثانيهما ٥٦٨م فهما لا يختلفان شيئاً عن الخط الذى كتب به القرآن الكريم وكتب به رسائل النبى (ص) إلى الملوك والأمراء وغيرهم ●

---

(١) (الحجر) مدائن صالح، وكان وطن الثموديين و(دادان) كانت وطن اللحيانيين وكلا المنطقتين موقعهما شمالى الحجاز.

(٢) سأذكر هذا فى موضع لاحق .

(٣) الخط الجنوبى هو اليمنى القديم ، وأطلقت عليه ثلاثة مسميات (المعينى) نسبة رلى الدولة المعينية . و(السبئى) نسبة إلى الدولة السبئية ، وأخيراً أطلق عليه (المسند) لأن هذا الخط عموماً منفصل الحروف وكانت حروفه تأخذ شكل الإسناد أى كان يسند بعضها إلى بعض .

- ٢ -

وقفة على هذه النقوش

كما ذكرت أنه بدا لعلماء الساميات والمعنيين بالأمر من الإفرنج والعرب أن نقش قرية (أم الجمال) غربى حوّران وهو على شاهد لقبر فهر بن سُلّى مربى جذيمة ملك تنوخ أن خطه نبطى غير أنه يمتاز بظهور روابط بين الحروف .

أما النقش الثانى وهو على شاهد لقبر أيضاً لكنه لملك من ملوك (الحيرة) هو امرؤ القيس بن عمرو فبدا فى طور الاكتمال أو دون ذلك فى هذا الحين ٣٢٨م ودونك نصه حسبما وُجد بسطوره الخمسة :

(تى نفسُ مُر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذحجو عكدى وجا بزجى فى حبج لجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه العشوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه عكدى هلك [1] سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول ليسعد ذو ولده)

وكما يبدو لنا أن النص بدأ باسم الإشارة للمؤنث (تى) وهو أحد ألفاظ عشرة للإشارة للمؤنث، وجاء بـ(تى) لأنه يشير إلى مؤنث وهى النفس أو المقبرة ، تى نفسُ مر القيس ، أو تى مقبرةُ نفس مر القيس ، (مُر) مخففة من (امرئ) والتخفيف والتسهيل معروف ، تقول فى قرأت ، قريت وفى ذئب ، ذيب وفى بئر ، بير . وهكذا (بر) هى الكلمة الوحيدة فى هذا النص غير العربية وهى آرامية تعنى (ابن) (ذو) تعنى الذى وهى معروفة أيضاً وكانت فى (طىّء) وتجدها كثيراً فى أشعارهم واستشهد بها النحويون ، من هذه الشواهد قول سنان بن الفحل :

فإن الماءَ ماءُ أبى وجدى وبئرى ذو حفرت وذو طويت

أى وبئرى التى حفرتها والتى طويتها ، وجاء فى قسمهم : لا وذو فى السماء عرشه . أى لا

---

(١) يوافق (كانون الأول) (ديسمبر) ٣٢٨م ، وهذه النقوش تجد صورها فى كتاب (النصرانية وآدابها) للأب لويس شيخو ، وفى (تاريخ العرب قبل الإسلام) لجواد على ، وفى مجلات علمية قديمة كان يعضها من إعداد العلماء الإفرنج وبعضها مشترك وأحسب أن الأب لويس نقل عنها وشارك فيها .

والذى فى السماء عرشه [1] ، (أسر التج) أسر تعنى هنا عقد وعصب وهما يؤديان معناها ، و(التج) هى التاج حذف منها الألف ، وذلك أثر من الآثار النبطية فلم يكونوا يثبتونها فى هذا الحين ، وفى السطر الثانى يعنى بالأسدين قبيلتىْ أسد ، ونراه أضاف إلى نزار ومذحج واواً وذلك أيضاً أثر نبطى فكانوا يضيفون إلى الأعلام واوا . و(عكدى)[2] قيل إنها (عكديا) حذفت منها الألف وهذا شأنهم مع الألف ، و(العكد) تعنى القوة . و(جا) فعل ماضى (جاء) ، وفى السطر الثالث يقول ك (بزجى) ومعناها بدفع أو باندفاع القوة ، فى (حبج لجران) حبج تعنى أشرف وورودها هنا بمعنى (مشارف) .

و(شمر) اسم لملك من ملوك اليمن و(معدو) هى معد . وفى السطر الرابع أضاف النون إلى (وكلهن) وقيل إنها نون توكيد ، وفى السطر الخامس والأخير يقول : فلم يبلغ ملك مبلغه كعدى. أى لم يبلغ ملك مبلغه قوة ، ثم ينهى كتابته بالتنويه إلى تاريخ وفاة الملك (هلك سنة ٢٢٣ من كسلول ليسعد الذى ولده . أى ليسعد أولاده .

وهذا نص عربى كله ما خلا كلمة واحدة هى (بر) الآرامية والتى تعنى ابن ، ثم بدا لنا أن فيه شيئاً من تضارب عند استعمالهم (لال) المعرفة وتركها ، ففى قوله : (ملك العرب كله وأسر التج وملك الأسدين) استعملها ، كذلك استعملها فى قوله (ونزل بنيه الشعوب) وفى قوله (وكلهن فرسو لروم) حذفها من الفرس ، وأضاف إليها الواو التى تضاف عندهم للأعلام ، ثم رأينا الكلمة التى بعدها وهى (الروم) أُضيف لأولها (لام) بدون ألف وهى خالية من الواو التى يضيفونها للأعلام . تُرى أتكون هذه اللام جارة وعليه لم يضف الواو ؟ الحقيقة أننا لا نستطيع أن نحكم بذلك وينبغى علينا ألا ننسى أنه نقش ومرّ على كتابته قرون عديدة تدنو من ستة عشر قرنا حين اكتشف ، فقد تكون طُمستْ منه بعض حروف أو غير ذلك من عوامل الدهر ، بيد أن هذا لا يغير من أهميته الكبرى على ما بدا لك وأنه قريب من الطور النهائى للكتابة العربية ، وخصائصه عربية، ونحسب أن عقوداً تمر عليها تكون كفيلة لتصل فيها إلى الشكل المراد فما بالك بثلاثة قرون هى الفترة ما بين تاريخ كتابة هذا النقش وبين كتابة القرآن ومكاتيب الرسول (ص) إلى الملوك والأمراء وغيرهم .

وتلكم وقفة أخرى بعد إيضاحه :

---

(١) ترد (ذو) هنالك للمفرد المذكر والمفرد المؤنث ، سواء أكان من العقل أم لم يكن ، ومتى اشتركت بين أمرين مختلفين دلّ هذا الاشتراك على أنها تأتى بلفظ واحد لكل ما يطلق عليه الاسم الموصول .

(٢) الأستاذ شوقى ضيف "فى العصر الجاهلى" .

تى نفس أمرئ القيس بن عمرو ملك العرب كله الذى أسر التاج ، وملك الأسدين ونزار وملوكهم وهرّب مذحج بالقوة وجا بدفع القوة إلى مشارف نجران مدينة شمر وملك معد ونزّل بنيه[1] الشعوب ووكلهم الفرس والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه قوة ، هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول ليسعد أولاده ..

ثم يأتى بعده نقش (زبد) ، وزبد أطلال بين قِينَّسرين والفرات ، وهو النقش الثالث وعليه ثلاث كتابات (يونانية) ، (سريانية) ، و(عربية) وخطه قريب الشبه جداً من الخط الذى كُتب به القرآن ومكاتيب النبى (ص) ، غير أنه قصير ولم يستطع العلماء قراءة أول كلمة من سطريه ، ونفس الأمر وُجد فى كلمتين فى آخر السطر الثانى فبدا هذا النقش غير مفيدة جملة مفيدة فائدة كبيرة من حيث خطه وشكله الكتابى ، ووجد بعد الكلمة المستعجمة أو المطموسة فى أوله (لفظ الجلالة) ثم جاء بعده أسماء أشخاص قيل إنهم بُناة كنيسة أو بناة مشهد للقديس (سرجيوس) .. وهذه صورته :

(الإله سرجو بن منفو وبن امرئ القيس وشرح بن سعد وستر وشريح) .

طبعاً لم نفهم شيئاً عنه بسبب ما استعجم أو طمس فى أوله وفى آخر كلمتين ، غير أننا ندرك أن هؤلاء الأشخاص اشتركوا فى أمر أو عمل واحد دلّتنا عليه واوات العطف بعد كلمة سرجو ، فهل نقدر الكلمة المستعجمة فى أول النقش فعلاً ماضياً (بارك) ، والكلمتين اللتين فى آخره (بُناة الكنيسة) أو (المشهد) وعليه يجىء على هذا النحو : (بارك الإله سرجو بن منفو وبن امرئ القيس وشرح بن سعد وشريح بُناة الكنيسة) أو بناة المشهد .

ونلاحظ أيضاً فى هذا النقش ترك الأثر النبطى واستعماله إلا أننا لا نجد به الأثر الآرامى .

أما النقش الرابع والأخير وهو نقش (حرّان اللّجا) بشرق الأردن فإن خطه لا يختلف عن هذا الخط ومن الحسن أنه لم يطمس أو يستعجم منه كلمة فجاءت جملته مفيدة رغم قصره . وهذا نصه : أنا شرحبيل بر ظلمو بنيت ذا المرطول سنة ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعم هو مشهد ، قيل[2] مشهد (يوحنا المعمدان) والنقش يخبرنا بأمرين : أولهما بناء شرحبيل للمرطول ، وثانيهما خراب لحق بمدينة خيبر على يد أحد أمراء الغساسنة . لكنه بدا لم يتخلص من الأثر الآرامى والنبطى ، إذ رأيناه لا يزال يستعمل كلمة (بر) ، وإضافة الواو إلى الأعلام وحذف الألف ، وإن كنا رأيناه فى

(١) المراد (نزولهم ملوكاً على هذه الشعوب) .

(٢) الأب لويس شيخو اليسوعى فى (النصرانية وآدابها) ، وهو يعتبر أول المصادر العربية فى ذلك .

النقش السابق عليه بست وخمسين عاماً شبه متخلص منهما وأهمه أن (بر) أُبدلت (ابن) وليس هذا قياساً فربما كانوا تخلصوا من كثير من الأثر الآرامى والنبطى فى زمن سابق لنقش (زبد) بكثير وربما كانوا ظلوا يكتبون بهما حتى بعد (حرّان اللّجا) ، بل الواقع يقول إننا لم نتخلص من الآثار النبطية والآرامية وغيرهما حتى يومنا هذا وهى فى صميم لغتنا .

وبعدُ فإن هذين النقشين كما ذكرت لا يختلفان شيئاً عن الكتابة التى كُتب بها فى عهد النبى (ص) والخلفاء الراشدين (ر) ، وبدا للمعنيين بالأمر حقيقة . وكانت جامعة القاهرة [1] قد أقامت معرضاً للمجموعة النادرة لرسائل النبى (ص) لملوك فارس والروم والحبشة وعظيم القبط وللمنذر بن ساوى وبعضاً مما كتب فى عهد الخلفاء الراشدين (ر) ، وبمضاهاة هذه المكاتيب [2] وُجدت لا تختلف شيئاً عن كتابتىْ (زبد) و(حرّان) وهذه المكاتيب يرجع تاريخ بعضها للسنة السادسة من الهجرة ●

(١) أقيم هذا المعرض فى أبريل من عام ١٩٩٧م .

(٢) ارجع إلى مركز بحوث ودراسات التراث الإسلامى بالقاهرة إن كنت معنياً بالأمر .

- ٣ -

الحيرة وغسان وأثرهما التعليمى

ذكرت أنى متحدث عن أثر هاتين المملكتين فى العرب ، وقد رأينا كيف أن إخواننا الأنباط هم أساس هذا الأمر العظيم ، وهو اشتقاقهم لخط نبطى عربى من الأصل الآرامى ، وبعد ذلك عرفه إخوانهم فى شمالى الحجاز والجزيرة العربية وغيرها أسهل وأحسن من الخط المسند الذى كانوا يكتبون به منذ عهود قديمة فارتضوه واتخذوه بديلاً عنه ، وما وجدوا فى هذا غضاضة ولا تثريب ؛ إذ إنه قادم عن إخوة لهم أيضاً بل وأقرب منهم نسباً . إذن فالمملكتان جاءتا وهذا الخط قائم يعنى به أصحابه الأنباط متفرقين فى إخوانهم وفى غيرهم ، كذلك يعنون به وهم تحت الولاية الرومانية، ويعنون به تجّاراً مقيمين أو متنقلين .. وهكذا شاءوا له الخلود ، ولو لم يكن الأمر على هذا النحو لذهب هذا الخط مع ذهاب سلطانهم (ببتراء) .

وكانت الظروف أخذت تتغير فى منطقة الشام ودخل غالب سكانها فى دين المسيح ما خلا الإسرائيليين ، وكان ضمن سكانها الأنباط الذين لم يغادروها ، وذُكر فى عهد متأخر عن هذا أن من الأنباط من انخرطوا فى السبيل الدينى وغدا فيهم رهبان وأساقفة ، وغدا واجبا على هؤلاء تعليم إخوانهم من بنى جنسهم على الأقل ومن ثم ظهر مزيد لحاجتهم للكتابة والتدوين ومزيد من تطور هذا الخط .

ثم إننا رأينا فى سيرة الغساسنة أنهم جاءوا هذه المنطقة وتسيطر عليها قبيلة قضاعة وعلمناها مسيحية ، فأنّى صارت مسيحية وهى قافلة عن اليمن ولّما يدين أهله بعد بالمسيحية ؟ أنّى صارت إذا لم يكن سعى إخوانهم الأنباط إليهم به ؟ وغدا هذا داعياً لمزيد من الاهتمام بهذا الخط ومزيد للتطور والانتشار ، هكذا جاء الغساسنة والحال بالمنطقة قائم ، ثم ينبغى ألا ننسى قبل هذا وذاك أنه كان منتشراً بهذه المنطقة المدارس السريانية والرومانية وكانت الأخيرة نظامية ولا تختلف كثيراً عن مدارسنا اليوم ، فالسنة الدراسية كانت فى أكثر من فصلين من فصول السنة ، ما عدا الصيف وجانباً من الربيع ، واليوم الدراسى يبدأ فى الصباح الباكر إلى ما بعد الظهر ، وقد تكون هذه المدارس ألحقت فصولاً دراسية لإخوانهم فى الدين وجيرانهم العرب الذين هم ضمن

رعاياهم ، بيد أنى لم أقرأ هذا صراحة وهو احتمال قائم ، إنما الأمر غير المستبعد أن تكون هذه الفصول أُلحقت بالأديرة والكنائس وهو دأبها حينئذ ، وكان التعليم بالمدارس الرومانية نوعين (تعليم عال) والتعليم الآخذ السبيل إليه ، وعُرفَت مدينة بيروت فى ذلك الحين بأنها كانت تضم مدرستين عاليتين (الحقوق) و(الهندسة) وعُرفت مدن سورية بهذا أيضاً ، وكان التعليم العالى فى أيدى البلغاء يُنتخبون كأستاذة من قبل مجلس الشيوخ المحلى فى المدن الكبرى ، ومن قبل الجماعات عموماً فى المدن الصغرى ، وكان للمعلمين نقابات متفاوتة حسب منزلتهم لكل نقابة رئيس .

وعلى هذا الشأن العظيم نزل اليمنيون الشام ، وعُرفوا فيما بعد بالغساسنة ، وبعد أحداث وخطوب وبعد حقب من الدهر نراهم ظهروا وبلغوا فى الدين والدنيا ما بلغوا . ثم بدا لنا أنه كان بينهم من يقرأ باليونانية ولولا الصدفة فى تاريخهم الغامض ما كنا عرفنا ذلك ، وعرفناه من خلال (المنذر بن الحارث) ملكهم ، وهذه الحادثة سببها أن الامبراطور (يطينوس) لما ضاق بهذا الملك بعد أمور كبيرة بينهما أمر كاتبه أن يكتب رسالتين واحدة لقائده (مرقيانوس) الذى كان مرابطاً بمدينة نصيبين يأمره فيها بقتل المنذر ، وأخرى للمنذر نفسه لم يُذكر مضمونها ، لكن يبدو أنها كانت تطيب خاطره حتى يظفر به مرقيانوس ، ويقال إن الكاتب أخطأ فأرسل رسالة مرقيانوس إلى المنذر وأرسل رسالة المنذر إلى مرقيانوس ، فلما قرأها المنذر غضب غضباً شديداً وتحالف مع قابوس ملك الحيرة وجعلا يغيران على مدن الشام الرومية ، ولما صار (طيباروس) امبراطوراً ذهب إليه المنذر وأطلعه على الرسالة ، ثم عادت العلاقة بينهما حسنة .

وعرفنا ذلك أيضاً من خلال طرف حكاه بعض الشعراء الذين كانوا يفدونه عليهم مادحين لنوال عطاياهم وهداياهم القيمة منهم حسان بن ثابت الذى يقول عن زيارته لآخر ملوكهم جبلة بن الأيهم :

لقد رأيت عشر قيانٍ فى مجلسه خمس يغنين بالرومية بالبرابط [1] وخمس يغنين بالعربية .

وهب أن التعليم الأجنبى ما كان يستطيع الرقى إليه إلا الطبقة الحاكمة والأغنياء - ومبلغ علمى أن مدارس الأديرة والكنائس تكون مفتوحة للجميع - فهل يليق أن يتطلع هؤلاء إلى التعليم الأجنبى وهم جاهلون القراءة والكتابة بلغتهم ؟ ما تلك سمة العربى الغيور على قوميته ولغته ، وهل لولا غيرة العربى وشدة حبه للغته كان كُتب لها النجاح والدوام منذ اشتقوا خطهم

(١) (برابط) جمع بربط ، والبربط هو العود واللفظ فارسى .

من الأصل الآرامى ؟ على هذا النحو جاء اليمنيون هذه المنطقة وهذا الخط قائم يكتب به إخوانهم الذين سبقوهم إليها ، فلما بسطوا نفوذهم عليها ثم عرفوا بالغساسنة احتضنوا هذا الأمر وعملوا على مزيد من انتشاره وأقاموا مدارس على غرار ما يرون من مدارس أجنبية دونهم ، واستعانوا بالبيزنطيين ليساعدوهم فى هذا ، وقد رأينا أن البيزنطيين ما كانوا يضنون عليهم بشىء ، وإذا كانوا أقاموا لهم كنيسة مذهبها مخالف للكنيسة الامبراطورية ألا يقيمون لهم مدارس عربية ؟ .

وقد رُوى عن ملوك الغساسنة أنهم اعتبروا أنفسهم خلفاء لملوك الأنباط ، وأنه لم يبق من ميراث الأنباط شىء مادى إلاّ هذه الكتابة - وحسبه من ميراث غال - ألا يجدر بهم أن يراعوه ويعملوا على انتشاره ؟ .

بقيت أمور تدلنا على أن المدارس العربية كانت قائمة عندهم سواء ملحقة بالأديرة والكنائس أو مستقلة .. من هذه الأمور المنافسة التى كانت بينهم وبين الحيريين ، وقد [1] بدا لنا جالياً أن المدارس والكتاتيب كانت منتشرة بالحيرة ، أفلا يكون هذا داعيا لمحاكاتهم من باب المنافسة أو الاقتداء ، وقد تكون غسان هى أصل هذا ، لكن لأن اليونانيين هم الذين كانوا يؤرخون لهم ثم انقطعوا فجأة عن هذا ؛ أغمض على كُتّاب السِّيَر والأخبار العرب أمرهم كثيرا .

ومن تلك الأمور ما حكى عن رجل كان يعيش فى بادية الشام ، ثم انتقل إلى مكة ، ولولا أحداث جرت بينه وبين سكانها الخزاعيين ما علمناه يكتب فى هذا الحين من الدهر ، وهذا الرجل هو (قصى بن كلاب) الجد الخامس للنبى (ص) سنة ٤٠٠ م الذى حين أراد إخراج خزاعة من مكة كتب إلى أخيه من أمه (رُزاح بن ربيعة) يدعوه لنصرته ، فأقبل رزاح ومعه ثلاثة إخوة من أبيه وبمن أجابه من قضاعة .. وإذا كان سكان بوادى الشام عرفوا القراءة والكتابة فكيف يكون الحال عند سكان حواضره ؟

أحسب أنه سيخطر ببالنا أن قصيّاً خرج من مكة طفلاً ورجع إليها يافعاً ، وقد يكون لقى تعليمه بها ، فهذا وارد واحتماله كبير ؛ لكنه لا يغير من الأمر شيئاً فقصىّ كتب وأرسل بكتابه إلى من سيقرؤه والمرسل إليه بقضاعة أو بعذرة والموطن واحد هو بادية الشام .. وهذا يعزز ما نوهت به بأن قبيلة قضاعة نزلت دون الأنباط واستفادت من تعليمهم ، ثم جاء مواطنوهم الذين عُرفوا فيما بعد بالغساسنة ووجدوه ووجدوا غيره بمدن الشام فعملوا على رعايته وانتشاره ما داموا اعتبروا أنفسهم خلفاء لملوك الأنباط .

---

(١) ستقف عليه توّاً .

ثم يبقى أمر دامغ ، وهو أن جميع هذه النقوش التى عُثر عليها ومرّت بك توّا كانت بمنطقة الشام ودون موطن الأنباط ، ألا يكون هذا دليلاً على أن هذه الكتابة كان لها الرعاية والعناية من جميع من حلوا بالشام من العرب ، وكيف يكون لها هذه الرعاية إلا فى دورها ، ودورها المدارس؟ وما كانت المدارس بغريبة على المنطقة على نحو ما قدمت .

غير أنى لى على النقش الثانى حديث من جهة العراق ، ولا يغير من الأمر شيئاً ههنا ، بل هو يبدى اهتمام العرب جميعاً بهذه الكتابة ، وأرجو أن أكون كشفت عن دواعى التعليم وثبوته بين عرب الشام ، والمقصود التعليم العربى بالخط العربى .

الحيرة

مملكة الحيرة أمرها مختلف عن أمر مملكة غسان إذ نقل كتاب السير والأخبار أمرها واضحاً جالياً.. ففى كتاب الأغانى يذكر أبو الفرج : أن حماداً أول من كتب من آل أيوب فخرج من أكتب الناس ، وطُلب حتى صار كاتب الملك النعمان الأكبر ، فلبث كاتباً له حتى ولد له ابن من امرأة من طيّئ فسماه زيداً باسم أبيه ، وكان لحماد صديق من الدهاقين[1] يقال له (فرّوخ ماهان) وكان محسناً إلى حماد فلما حضرت حماد الوفاة أوصى بابنه إلى الدهقان ، فأخذ الدهقان زيداً فكان عنده مع ولده ، وكان زيد حذق الكتابة العربية قبل أن يأخذه الدهقان ثم علمه الفارسية مع ابنه فحذقها وكان لبيباً فأشار الدهقان على كسرى أن يجعله على البريد فى حوائجه ، ولم يكن كسرى يفعل ذلك إلاّ بأولاد المرَازبة ، فمكث يتولى ذلك لكسرى زماناً ، ثم إن النعمان النصرى هلك فاختلف أهل الحيرة فيمن يملكونه إلى أن يعقد كسرى الأمر لرجل ينصبه فأشار عليه مرزبان بزيد بن حماد ، فكان على الحيرة إلى أن ملّك كسرى المنذر بن ماء السماء . ونكح زيد نعمة بنت ثعلبة العدوية ، فولدت له عدياً وولد للمرزبان ابن فسماه شاهان مَرْد ، فلما تحرك عدى وأيفع طرحه أبوه إلى الكُتّاب حتى إذا حذق العربية أرسله مع ابن المرزبان إلى كُتّاب الفارسية فكان يختلف مع ابن المرزبان ويتعلم الكتابة والكلام بالفارسية ، حتى خرج من أفهم الناس وأفصحهم بالعربية والفارسية ، ثم توسط له المرزبان فرّوخ عند كسرى ، فكان عنده مُعظماً ويكتب له بالعربية والفارسية ، وكان إذا أهلّ على مجلس خفّ له الحاضرون احتراماً ، وعلا شأنه على شأن أبيه ...

---

(١) جمع (دهقان) وهو لفظ فارسى، قيل معناه وجيه فى القوم، وقيل معناه كبير تجار . وقد وجدت كلتا الترجمتين .

رأيت أن أبا الفرج يذكر حماداً أول من كتب من آل أيوب وكان كاتباً للنعمان الأكبر ، والنعمان هذا اعتلى عرش الحيرة ما بين نهاية القرن الرابع والعقدين الأولين من القرن الخامس الميلادى ، ولا نحسب أن حماداً أول من كتب بالحيرة ؟ .

كذلك يذكر أبو الفرج : أن أبا المرقّش عهده وأخاه حَرْملة إلى معلم نصرانى من معلمى الحيرة فعلمهما الكتابة .

وقصة المرقش وكتابته على رحل زوج مولاته معروفة لدى دارسى الأدب العربى ، مذكورة فى بعض كتب الأدب .. وهذه الرواية تذكر : أن المرقّش لما خرج طالباً ابنة عمه ومحبوبته فى أرض مراد بعد أن زُوجتْ هناك بدون علمه ، صحب معه مولاة له وزوجها وكان راعياً يرعى له وهو الذى يسمّيه مرقش الغُفَلى ، وفى أثناء رحلتهم ودون أرض مراد أُعتُلّ مرقش ، فجفاه وحدبت عليه المرأة ، ثم اضطرت لأن تطيع زوجها فى التخلى عنه وأزمعا أن يتركاه ، وأحس مرقش هذا فانتظر غفلةً منهما وكتب على رحل الرجل :

يا صاحبىَّ تلوَّما لا تعجلا ... إن الرحيل رهينٌ أن لا تعذلا

فلعل بُطْأكما يُفرّطُ سيئاً ... أو يسبق الإسراع سيْباً مُقْبِلا

يا راكباً إما عَرَضْتَ فلبغَنْ ... أنس بن سعد إن لقيتَ أو حَرْملا

لله دُرُّكما ودرُّ أبيكما ... إن أفلتَ الغُفَلى حتى يُقتلا

مَنْ مبلغ الأقوام أن مرقشا ... أمسى على الأصحاب عبئاً مثقلا

ذهب السباع بأنفه فتركنه ... أغنى عليه بالجبال جيئلا

وكأنما ترد السباع بلشوه ... إذْ غاب جمع بنى طُبيعة منهلا

فلما عاد الغُفَلى وامرأته أذاعا أن مرقّشاً مات ، ثم إن حَرْملة نظر إلى رحل الرجل فقرأ الأبيات فدعاهما وأمرهما أن يصدقاه ، ففعلا [1]

ومن هنا نرى أن مملكة الحيرة كانت مقصداً علمياً فى هذا الحين يفد إليها أهل الجزيرة العربية فيمكثون بها الوقت الذى ينالون فيه تعليمهم ، ثم يعودون إلى بلادهم متعلمين ، ولولا أن مرقشاً شاعر ذائع الصيت ما كنا علمنا أن أباه أرسله وأخاه ليتلقيا تعليمهما بالحيرة ، وقد يكون هناك

---

(١) القصة تجدها بجزء (٥) من الأغانى لأبى فرج الأصفهانى ، وفى المفضليات عند ذكر المرقش .

ألوف غيرهما وغير المشاهير الذين حفظ لنا التاريخ سيرتهم وجاء ذكر الحيرة فى ثناياها ، نعم قد يكون هناك ألوف أرسلهم آباؤهم وعائلاتهم إلى هذه المملكة ونالوا تعليمهم بها ، لكن لكونهم أناساً عاديين لم يذكرهم التاريخ كذكره مرقشاً وأخاه حرملة من خلال سيرته ، وكذكره النضر بن الحرث الثقفى القريشى الذى قدم الحيرة ودرس بها علم العرب والفرس فى التاريخ والأدب ، وكان إذا جلس النبى (ص) مجلساً ودعا فيه إلى الله وتلا القرآن وحذر قريش ما أصاب الأمم الخالية خلفه فى مجلسه وحدثهم عن كتب رستم وإسفنديار والسابقين يقول[1] : والله ما محمد بأحسن منى حديثاً وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبتُها .

وكذكره المعلم (بشر بن عبد الملك) أخو (أكيدر) ملك دومة الجندل الذى نال تعليمه بالحيرة ، ورجع إلى بلده يعلم الناس ، وقيل كان يخرج يعلم فى غير مملكتهم .

وكذكره المعلم (جفينة) النصرانى ظئر (سعد بن أبى وقاص) (ر) ، كذلك نقل لنا التاريخ أسماء غير هؤلاء لكونهم شعراء أو كانوا دون أحداث عظيمة مثلما مرّ بك من سيرة النضر ، وجفينة الذى قتله عبيد الله بن عمر بن الخطاب (ر) مع من قتلهم عقب مقتل أبيه .. أو من ذكرهم من باب إجلال مهنة المعلم ، فمثلوا بشخصية بشر بن عبد الملك لكونه أخاً للملك .

فهل كان المعلمون والمتعلمون كلهم كهؤلاء ؟ .

وما كانت المدارس والكتاتيب منتشرة فى حاضرة المملكة وحسب إنما كانت منتشرة كذلك فى مدن أخرى بل وفى القرى ، ففى ذكر مسير (خالد بن الوليد) (ر) من عين التمر وجد فى كنيسة قرية من قراها تسمى (النقيرة) أربعين غلاماً يتعلمون[2] فأخذهم وفرقهم فى أصحابه وكان ضمن هؤلاء الغلمان عمران مولى الخليفة عثمان بن عفان (ر) .

وثمة قصة تدلنا على انتشار التعليم فى الحيرة ، وهذه القصة تروى : أن عمراً بن هند الملك كتب لطرفة بن العبد وخاله المتلمس كتابين مضمونهما قتلهما وقال لهما : انطلقا إلى عاملى على البحرين فاقبضا منه جوائزكما ، أما سبب هذا فاختلف فيه ، قيل سببه هجاء طرفة له ، ولما أراد قتله خُوِّف من لسان المتلمس ، فدعا الاثنين وكتب لهما هذين الكتابين ، وقيل سببه أن طرفة كان ينادم عمراً الملك فأشرفت أخته فرأى طرفة ظلها فى الكأس التى بيده فقال فى هذا شعراً ، فحقد عليه عمرو .. وذكر فى موضع آخر أن كليهما نالاه بالهجاء .. الخلاصة أنه كتب لهما هذين

(١) تجده فى (سيرة ابن هشام) ، الجزء الأول ص ٣٨١ ، وفى غيره من المراجع .
(٢) (الطبقات الكبرى) لابن سعد ، الجزء الثالث و (الكامل) لابن الأثير ، الجزء الثانى .

الكتابين ، وخرجا من عنده حتى إن بلغا موضعاً بالنجف قال المتلمس لطرفة : تعلمن والله أن ارتياح عمرو لى ولك لأمر مريب عندى ، وأن انطلاقى بصحيفة لا أدرى ما فيها لحماقة .. فقال طرفة : إنك لتسىء الظن وما تخاف من صحيفة إن كان فيها الذى وعدنا ، وإلاّ رجعنا فلم نترك له شيئاً ، وأبى طرفة أن يجيبه فى النظر فيها ، ففك المتلمس خاتم الصحيفة وعدل إلى غلام من [1] غلمان الحيرة فأعطاه إيّاها ليقرأها ، فشرع الغلام يقرأ وفى أثناء هذا أقبل غلام آخر يبدو أنه كان معه أو متطفل فأشرف فى الصحيفة ولا يدرى ممن هى وقال : ثكلت المتلمس أمُه .. هناك انتزعها المتلمس من يد الغلام وأتبع طرفة فلم يلحق به .

وهذه القصة وإن كانت تبدى لنا المتلمس أُمِّيّاً فهى تبدى لنا مدى انتشار التعليم فى الحيرة ومدن العراق العربى - غلام يقرأ فى مكتوب فيأتى آخر وبمجرد ما يطل فيه يقرأ ما به .. أما يشبه هذا شأننا اليوم إذا ما كان شخص ممسكاً مكتوباً يقرأه وآخر دونه يشرف فيه يختلس منه النظر ، أو يقرأ معه .

ثم إنها تبدى لنا أيضاً أن الكتابة فى هذا الحين كانت بلغت كمالها وإلاّ ما كان استطاع الغلام أن يطل فى الصحيفة ويلتقط ما بها التقاطا .

كذلك تبدى لنا أن الصبيان كانوا يتبارون ويتراءون بقراءتهم .

منهج التعليم فى الحيرة

هل كان التعليم بهذه المملكة مقصوراً على هذا ، أعنى على تعليم الصبيان القراءة والكتابة ، ومعرفة طرف من الدين وأخبار الأولين بما يلاءم عمرهم ؟ . إن المراجع والمصادر تحدثنا أنه لم يقتصر على هذا ؛ بل كان لديهم تعليمٌ عالٍ فى الدين والدنيا ، وقد دلتنا عليه مؤلفات فيهما .. وقد مرّ بنا الحديث عن النضر بن الحارث الذى قدم إليها ودرس بها الأدب والتاريخ الفارسى ، وقيل إن أباه سبقه إليها وتوقف بها إذ هو فى طريقه إلى (كلية طب جُند يسابور) ، وقد يكون عناها أولاً ليتعلم بها الفارسية واليونانية ، أو على الأقل اليونانية التى هى لغة الدراسة بهذه الكلية رغم وجودها فى بلاد الفرس ، ثم بقاؤه فى هذه البلاد طبيب معالج مشهود له .

أما تلك المؤلفات ففى علوم الدين وضع الأب (يوحنا الأزرق) فى النصف الأخير من القرن السابع الميلادى رسائل فى (التهذيب الرهبانى) وألف فيه كتاباً ، وكانت مؤلفاته باللغة العربية ،

---

(١) القصة تجدها فى (المعلقات السبع الطوال) بشرح الأنبارى وتحقيق عبد السلام هارون طبعة دار المعارف المصرية .

وألف الأب (يوحنا نيشوع) مباحث فى الكتاب المقدس ونقل ما جاء فى كتاب (الآداب السريانية) رواية عن (إيشو عداد) أسقف حيرى أيضاً فى ترجمة الكتاب المقدس المعروفة (بالبسيطة) وألف (يوحنا نيشوع برسروشاى) معجماً سريانيا .

وهذه المؤلفات الحيرية بعض من مجموعة [1] حفظها لنا الدهر ووصلت إلينا وأن كثيراً وعظيماً أخنى عليها .

وما كان الحيريون يكتفون بما فى معاهدهم من علوم إنما كانوا يتطلعون إلى المزيد مما ليس لديهم ، فيشدون الرحال فى طلبه .. فى (الرُّها) و(نصيبين) و(أنطاكية) وغيرها ، وكانوا كذلك يتخذون سبيلاً آخراً فى طلب العلم وهو استدعاء المعلمين إلى بلدهم .

من هم سكان الحيرة ؟

لعل الحديث التعليمى عن الحيرة يجعل سؤالاً يلح على فكرنا وهو : متى أنشئت هذه المملكة؟ ومن هم سكانها ؟ وما العوامل التى جعلت منها منارة للعلم فى هذا الحين من الدهر ؟

: المرجح أنها أنشئت فى عهد سابور الأول الامبراطور الفارسى ، أما سبب إنشائها فهو حماية الحدود الفارسية من غارات الأعراب . أما سكانها فكانوا من العرب وهم العنصر الغالب وكانوا عدنانيين وقحطانيين وكان الملك فى فرع لخم القحطانى ، أى اليمنى ، وكانوا أيضاً من الفرس ، والأنباط ومن سكان العراق الأصليين [2] ... أما العوامل التى جعلت منها منارة للعلم فيبدو لنا من خلال هذه التركيبة السكانية أنها ضمت أصحاب عدة حضارات وهؤلاء جميعاً لو لم ينقلوا إليها شيئاً من حضاراتهم لنقلوا أبسط أمورها وهى إنشاء المدارس والكتاتيب لأبنائهم .

وهذا ما بدا لنا واضحاً من خلال سيرة (حماد) وصداقته للفرس ، وقد مرّ بنا أنه ألحق ابنه زيداً بالكتاب الفارسى بعد أن كان زيد تعلم العربية بالكتاب العربى فى حياة أبيه .

ومثل ما جاء فى ذكر يهود بابل الذين كانت لهم مدارسهم فى (سورا) ونهر (دعة) و(فم البادية) .

وأحسينا نلمس أيضاً من خلال هذه التركيبة أن أول ما أُنشئ بها من مدارس كانت الفارسية

---

(١) الأستاذ يوسف رزق الله غنيمة فى كتابه (الحيرة) ، طبعة بغداد .

(٢) أطلق المسلمون الفاتحون على بعض سكان العراق تسمية (النبط) لكن أحسبك تتنبه أن ثمة فرق بينهم وبين الأنباط الذين مر بك الحديث عنهم منذ قليل والذين هم عرب شماليون ، وقد وضحت لك هذا .

والعربية ، ثم أخذت تتسع لتشمل السريانية واليونانية وغيرها .

متى انتشرت النصرانية بها ؟

قد يـداعب بالنا سؤال آخـر وهو : متى تنصـر سكان هذه المملكة العـربية أو جـانب كبيـر من سكانها وهى المنشأة الفارسية المجوسية ؟

إن هذا لا يعنينا هنا ، وما رأيت له تاريخاً أو كيفيـة محددة ؛ إنما لا ينكر أن غالب قبائل العراق قبل الإسلام كانت مسيحـية شأنهم شأن إخوانهم فى الشام ، وذكر[1] أنه دوّن انعقاد مجمع كنسى بتاريخ سنة ٤١٠ م عليه توقيع رئيس أسـاقفة الحيرة ، ومن ثم تكون المسيحية عـرفت سبيلها إليهم قبل هذا بكثير جداً إذ لا يليق أن يكونوا بلغوا هذه المنزلة فى المسيحية وهم حديثو العهد بها ..

لكن الواضح والذى يـعنينا هنا أن الكنائيس والأديـرة بهـا قامت بـدور هام فى تعليم العـربيـة ورُقيّها .

وكانت اللغة العربية هى السائدة فى هذه المملكة لكون غالبيتها من العرب وملوكها من العرب وما كان للفرس دخل فى شئونها سوى اختيار البيت الموالى لهم ، وأيضاً كان يخضع لهذه المملكة العربية أجـزاء من الجزيرة العربية ، ثم إن ملوكـها وعربها جميعاً أرادوا هذا وسعـوا نحوه جادين فتحقق لهم .

وكانت بهـا كذلك لغـات لا تنكر وتعلم ولها مـدارسهـا مثل الفارسـية والسـريانية واليـونانية والعبرية والكلدانية ، وما كانت هذه اللغات مقصورة على أصحابها بل كانت تدرس لغيرهم وقد رأينا هذا فى ذكر عدى وأبيه ، وفى ذكر لقيط بن يعمـر ، وفى سيرة النضر بن الحرث ، وذكر عبود الحيرى الـذى ترجـم بين رستم والمغيرة بن شعبة وفـى ذكر كثيرين غـيـر هـؤلاء تعلموا بها أكثر من لغة .

ويبدو أن هذه المملكة كانت ذات صفة تسامحية فهى مـجوسية المنشأ نصرانية الأغلبية وعاشت بجوار هذه وتلك الوثنية والمانوية واليهودية وما صادفنى نزاع حدث بين طوائفها ، بل رأينا صداقة حمـيمة بينـهم أحسبنا لمسناها مـن خلال الحديث عن حـماد وأبنائه وسيـرتهم مع الفرس وسـيرة الفرس معهم ، وأحسبنا لمسناها كذلك من خلال تنوع المدارس والمؤلفات .

---

(١) الأستاذ جواد على فى (تاريخ العرب قبل الإسلام) .

الأثر الجنوبي بها

يبدو أيضاً أنه لم يكن للخط المسند والأثر الجنوبي شيء يذكر بهذه المملكة رغم أن ملوكها وجانباً كبيراً من شعبها من اليمن ، أو أصوله يمنية ، بل ليس ثمة ما يدل على أنه كان للجنوبية أثر في هذا الحين إلاّ في بعض جهات نائية من الجزيرة بما فيها اليمن نفسه وأعظم دليل على هذا تلك المكاتبات الكثيرة التي كانت بين النبي (ص) وبين ملوك ورؤساء اليمنيات فليس بهذه المكاتبات أي دليل على أنها كانت غير الشمالية اللهم إلاّ مكتوباً واحداً عرفنا من خلاله أن اليمنيين كانوا لا يزالون يحتفظون بلغتهم القديمة يستعملونها فيما بينهم إلاّ أنه يعرفنا أيضاً أن الشمالية صارت العامة ولم يكن للجنوبية إلاّ هذا الأثر الجانبي في اليمن نفسه . وهذا المكتوب هو الذي بعث به النبي (ص) عياش بن أبي ربيعة إلى بني كُلال من حمير، وقال له إذ هو منصرف به: خذ كتابي بيمينك وادفعه إليهم بيمينك في أيمانهم ، فهم قائلون لك اقرأ ، فاقرأ (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين) . فإذا فرغت منها فقل : آمن محمد وأنا أول المؤمنين ، فلن تأتيك حجة إلاّ وقد دحضتْ ، ولا كتاب زخرف إلاّ وذهب نوره ومُح لونه وهم قارئون فإذا رطنوا فقل ترجموا .

إذن لم يكن للجنوبية سوى هذا الأثر الجانبي في اليمن نفسه . ونرجع للحيرة فنرى أنه لا أثر للجنوبية بها بل إننا نرى العكس ، نرى أن ملوكها عملوا على رقي الكتابة الشمالية وبدا أنهم راعوا واحتضنوا أصحابها الأنباط شأنهم في هذا شأن الغساسنة ، ونحسب أن الأنباط الذين نزلوا دون الفرات إبان الفُرقة سعوا أو ضُم بعضهم إلى هذه المملكة بُعيد إنشائها ، بينما سعى بعضٌ آخر أو ضم إلى مدينة الأنبار .. بل إني أرجح لقاء هؤلاء بأولئك قبل إنشاء الحيرة والأنبار حين كان العرب ينزلون الخيام دون الفرات منذ عهد قديم ، ثم نزل دونهم اللاجئون الأنباط ، هنالك كانت معرفة العرب العراقيين بالكتابة الشمالية النبطية ، وتمخض عن هذا تطور سريع في الخط ؛ حتى إن أهل القرن الرابع الميلادي كانت الكتابة الشمالية تقترب من طور تمامها ونستطيع أن نلمس هذا من خلال نقش (النمارة) الذي هو دونك والمؤرخ بعام ٣٢٨م ، فإنه وإن وجد بمنطقة الشام إلا أنه كان لثاني ملوك (مملكة الحيرة) امرئ القيس بن عمرو بن عدي الذي بسط نفوذه على هذه المنطقة وغيرها من المناطق العربية وتعاون مع الفرس والروم في آنٍ واحد ، ولا نحسب أن الملوك يكتبون أو يكتب لهم بغير خطهم ولغتهم ولو كانت كتابتهم بالمسند ماتوانَوا في الكتابة به حتى لو كانوا بمنطقة الشام وكان كاتبه شامياً . أما رأينا أن هذا دأبهم حين كانوا يتخذون الخط الجنوبي من قبل ،

سواء وجدوا بالشام أو بمصر أو بغيرهما . ولو كان لها استعمال فى الحيرة ما كان حماد [1] الراوية بعد ما يدنو من قرن ونصف من الهجرة قال : إن النعمان بن المنذر أمر فنسخت له أشعار العرب فى الفنوج (الكراريس) ثم دفنها فى قصره الأبيض ، فلما كان المختار [2] بن أبى عبيدة قيل له إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفره وأخرج تلك الأشعار .

ولا كان هشام بن الكلبى [3] قال : كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتأريخ سنينهم من أديرة وبيع [4] الحيرة ، وفيها ملكهم وأمورهم كلها.

وإن كان أنكر على الرجلين قولهما فليس بسبب بلوغ الكتابة مبلغ التدوين ، إنما بسبب ما كان يُشاع فى الناس حينئذ بأن العرب لم يدونوا فى كراريس وكانت كتابتهم على العسيب والجلود والعظام ، وينكرون تدوين الشعر ألبته .

لكننا رأينا ابن سلام فى طبقاته أيضاً يقول : وكان عند النعمان بن المنذر من شعر العرب الجاهلية ديوان فيه أشعارهم الفحول وما مُدح به هو وأهل بيته .

وإن نحن تركنا التصديق والتكذيب فى أمر التدوين فى الكراريس أو التدوين كلية وإن كان هذا غير مستبعد عن الحيرة منشأة الفرس ورببيتها ومُخرجة أبنائها يتبوأون أعلى المناصب فى دواوين ملوك الفرس ، إن نحن تركنا هذا نرى أنه لولا يقين هؤلاء فى بلوغ الكتابة عند العرب الحيريين مبلغ التدوين حينئذ ما فاهوا بهذا البتة .

ثم إن المراجع والمصادر عرفتنا أنه كان بالحيرة مؤلفات وتراجم فى النصف الأخير من القرن السابع الميلادى ، فهل يتم هذا إلاّ إذا كان مرّ على كمال كتابتهم حقب من الدهر .. ولو كان ثمة شك بأنها غير الشمالية ما فاهوا به كذلك وإلاّ كنا رأينا من ينبرى لهم ويرد عليهم قولهم بأن لغة وكتابة الحيريين غير لغتنا ، مثلما فعل أبو عمرو بن العلاء وقال فيما أورد ابن سلام نفسه فى طبقاته : ما لسان حِمْيَر وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا ..

هكذا رأينا الحيرة فى هذا الحين من الدهر .. كتاتيب ومدارس – عربية وغير عربية – ، ورأينا

---

(١) زعيم رواة الكوفة ، قيل توفى سنة ١٥٦ هـ وقيل ١٦٤ هـ .

(٢) زعيم التوابين الذين نادوا بثأر الحسين بن على ، وملك العراق حقبة وحاربه الزبيريون والأمويون ، ثم قتله الزبيريون عام عام ٦٧ هـ .

(٣) هشام بن محمد بن السائب راوية أيضاً توفى سنة ٢٠٤ هـ .

(٤) بيع جمع بيعة ، والبيعة الكنيسة .

إنْ أيفع الطفل بها وتحرك أُرسل إلى الكتاب ، ثم المدارس ، وإن تطلع إلى مزيد وجده بها أو شد الرحال إليه فى موطنه ، ومن ناحية أخرى كانوا يستدعون المعلمين من مواطن العلم ، ورأينا مؤلفات كبيرة فى الدين والدنيا ، ورأيناها مقصداً للعرب جميعاً يتزودون منها بالعلم ، وقد رأينا أن العرب من نواحٍ مختلفة من الجزيرة لا يقعدون عن طلب العلم وشد الرحال إليه رغم بعد المسافات ولقاء الصعاب والمشقة .

الأنبـار

قبل أن ندع العراق إلى داخل الجزيرة العربية لنقف على معرفتهم بالقراءة والكتابة لا يفوتنا الحديث عن مدينة الأنبار التى كان يستوطنها العرب منذ زمن بعيد والتى ينسب إليها بعض الإخباريين تعليم القريشيين والعرب القراءة والكتابة ، وإننى كنت أريد ذكر طرف مما كتبه الأقدمون فى هذا الموضوع لا يتعدى اعتقادهم أن أصل الخط العربى يرجع إلى الأنبار وإياد ، ثم أوضحه وأرده إلى أصله على نحو ما سأفعل . وأكون بذلك قدمت إلى القارئ فى كل ما تحدث به الأقدمون الطرف القريب من الصحة فيه ووضحته ، وذلك لأنى أرى أنه لا داعى من التشويش بما لم يعد منه جدوى بعد أن بين لنا السبيل العلمى الحقيقة واضحة ، إذ إن كل ما ذكره أولئك الأقدمون يكتنفه الخلط والتضارب والبعد عن الحقيقة وما عدنا نراه إلاّ ضرباً من عشواء لم تصادفه الإصابة مرة واحدة ، بل إنك لن تجد فى كلامهم المعنى بالخط ذكراً للأنباط أصحاب الأمر كأنهم لا يعرفون الأنباط ، أو كأنهم لا يريدون أن يعرفوهم إلينا ، إنما رأينا فى أحاديثهم بعيداً عن هذا ذكر أنباط أصحاب عىٍّ وهجنة [1] غير عربية ، وحين جاء فى كلام هؤلاء الأقدمين ذكر شمالى الحجاز جاء ساذجاً من باب الأساطير ودون أن يدروا أنه موطن الخط العربى .. أما ذكرى إيّاه فلأنه ينبغى على أن أذكره ما دام كتب فى هذا الموضوع وليقف عليه القارئ علّه يرى فيه شيئاً يوحى إليه بأمر ما ، ثم إننا سنجد فى بعض فقرات أحاديثهم ما يُعيننا ونستشهد به فى بعض مواضع آتية دون أن يكونوا قصدوا بنا ذلك ، ولعلنا فى النهاية نلتمس لهؤلاء الأقدمين العذر .

يقال فى مسير خالد بن الوليد (ر) إلى الأنبار لإخضاعها وجد أهلها بارزين فأيقن أنهم مسالمون ولا علم لهم بالحروب فأمر رجاله أن يرشقوا عيونهم بالسهام ، ففعلوا وخُرقت يومئذ [2] ألف عين ، ولما احتل المدينة وصالح أهلها وظهروا بعد الرعب الذى نزل بهم رآهم يكتبون بالعربية

(١) لفت نظرك لهذا فى صفحة سابقة .

(٢) ذكر الطبرى فى الجزء الثانى من (تاريخه) صفحة ٣٧٥ .

ويتعلمونها ، فسألهم من أنتم ، قالوا : قوم من العرب نزلنا إلى قوم من العرب قبلنا ، فكانت أوائلهم نزلوها أيام الامبراطور بختنصر حين أباح العرب ثم لم تُزل عنها . فقال ممن تعلمتم الخط؟ فقالوا تعلمنا من إياده ..

وهذا ما أردت التوقف عنده والاكتفاء به ههنا ، وأحسبك ترى فى هذا ما يؤيد مذهبى [1] بأن الأنباط أفادوا العرب فى العراق حين نزلوا دونهم قبل إنشاء الحيرة والأنبار وأن إياداً من أقدم القبائل العربية التى نزلت بالعراق وينسب إليها نشأة الخط العربى على نحو ما ترى . فمن أين جاءها هذا الخط خاصة وأن السبيل العلمى الحديث عرفنا أنه نبطى مشتق من الآرامى وموطنه شمالى الحجاز ، وقد بينت لك لجوء الأنباط دون إخوانهم فى العراق .. وأحسب أن الطبرى نقل هذا من اعتقاده بأن بختنصر هو الذى أمر ببناء مدينتىْ الحيرة والأنبار فإنه يذكر فى تاريخه أن الحيرة هُجرت قرابة خمسين عاماً قبل أن تعود للعمران ثانية ويُنصب عليها اللخميون ، بينما سارت الأنبار فى طريقها العمرانى .

وقد يكون هذا صحيحاً ، أى قفر الحيرة زمناً ودوام عمران الأنبار وهذا الأمر أكسبها نسب الخط العربى .

ومن ثَمّ نرى فى هذا الجزء شيئاً من الصحة وقد وضحته وصححته .

وننظر إلى قول آخر تناول هذا ، وهو ابن النديم الذى يذكر فى (الفهرست) عن ابن عباس (ر) أنه قال : أول من كتب العربية ثلاثة رجال من (بَوْلان) وهى قبيلة كانت تسكن الأنبار ، وإنهم اجتمعوا ففرضوا حروفاً مقطعة وموصولة وهم (مرامر بن مُرة) و(أسلم بن سدرة) و(عامر بن جدرة) فأما مرامر فوضع الصور ، وأما أسلم ففصل ووصل ، وأما عامر فوضع الإعجام .

وقول ابن النديم (وضع الصور) فهو يعنى صور الحروف الهجائية وقوله عن أسلم أنه (فصل ووصل) فيعنى بيان الحروف التى تكون مفصولة وموصولة فى الجملة أو الكلمة ، إذ ليس فى العربية حروف تعمل وهى منفصلة عن بعضها ، أما الفصل المعنىّ هنا مثل الألف والياء فى (الذى) فإنهما لا يكونان فى هذا الموضع إلاّ منفصلين ، لكن الفصل ليس صفة ملازمة لهما ولا لغيرهما إلاّ لوقوعهما فى مثل هذا الموضع .

وقوله أما عامر فوضع الإعجام ، فإنه يعنى إزالة العجمة عن الكلمة بالنقط التى تفرق وتبين

---

(١) (مذهبى) أى ما ذهبت إليه بفكرى ورؤيتى .